

أخيلة المتوسط قراءة في كتاب متعدّد

أحمد بيضون*



هل يجاز لنا أن نعامل رهطاً من الكتاب والباحثين بمثل ما أحبّوا أن يعاملوا به أناسا كثيرين غيرهم من أهل الكتابة والبحث سبقوهم إلى الموضوع عينه؟ هذا ما نحن مقبلون عليه بعد أن صحبنا زمنا مؤلفي تصوّرات المتوسط (وكنا أحدهم) ثم عدنا إلى الكتاب نفسه وقد مضت على صدوره أعوام. فعسى أن يتيح لنا هذا البعد نظرا في نصوص الكتاب لا تذهب به تقلصات المخاض كل مذهب.

وتصوّرات المتوسط* كتاب في عشرة كتيّبات وضعها عشرون مؤلفا قدموا إلى المشروع من عشر دول. ففي كل من الكتيّبات نص من "أديب" سئل أن يقول فيه ما أمّدّ به هذا البحر سيرة حياته ومسار أدبه ومقالة من "باحث" سئل أن يقول فيها ما ظهر من صور البحر وأعماله في كلام بني قومه أو بعضهم عبر تقلبات تاريخهم أو بعضها. وأما الدول فتسع منها "متوسطية" هي إسبانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان وتركيا ولبنان ومصر وتونس والمغرب وواحدة (هي ألمانيا) أقحمت في الكتاب إقحاما وكان إقحامها – في ما نرى – من حسن طالع الكتاب. كانت ذريعة الإقحام أن المتوسط ليس مجرد بحر وإنما هو "عالم" وأن التخّم الشمالي لهذا العالم يطاول

* كاتب وباحث لبناني. أستاذ في معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية.

Thierry Fabre et Robert Ilbert (dir.), *Les Représentations de la Méditerranée*, Mazonneuve et Larose, Paris 2000

وقد صدر العمل في عشرة كتيّبات تضمها عليه. والكتيّبات متباينة في عدد صفحاتها وجملتها نحو من 750 صفحة. وصدرت ترجمة عربية للعمل تحت عنوان *تصوّرات البحر الأبيض المتوسط*، Thalassa Editions، بيروت 2003. وقد أضيف فيها إلى اسمي المشرفين اسم غريغور ميرنغ.

وقد رعى التآليف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان في إكس أن بروفانس، فرنسا، ومولته جهات أوروبية وفرنسية عديدة. وتولت أمر الترجمة العربية مؤسسة كونراد أديناور الألمانية. ونرجع، إجمالاً، في ما يلي، إلى الطبعة الأصلية (الفرنسية) لأن معظم النصوص وضع بالفرنسية أصلاً وترجم بعضها (القليل) إلى هذه اللغة عن لغات أوروبية أخرى. وأما الترجمة العربية فنرجع إليها عند الإشارة إلى نصي الكتيّب المصري وإلى نص إلباس خوري في الكتيّب اللبناني لأن هذه النصوص وضعت بالعربية أصلاً. وقصارى القول أننا نحاشينا الرجوع إلى ترجمة عن ترجمة ما أمكن ذلك وطلبنا الأصل حيث أمكننا الرجوع إليه أيضاً. وأما المقالة التي قدمناها إلى الكتيّب اللبناني فأثرنا أن ندعها خارج هذا التناول. وكنا قد وضعناها بالفرنسية ثم تولينا أيضاً نقلها إلى العربية تحت عنوان: "المتوسط متطرفاً: القومية اللبنانية وركوب البحر".

وكانت الكتيّبات قد حملت اسم المتوسط موصوفاً باسم البلاد التي يتناولها: "المتوسط الإسباني"، "المتوسط التونسي"... إلخ. على أننا نحيل إليها هنا (بين أهلة في متن النص) باسم البلاد التي تناولها الكتيّب متبوعاً بالحرف الأول من اسم لغة الطبعة التي نرجع إليها ثم برقم الصفحة التي نقتبس منها أو نجمل مضمونها. مثلاً (إيطاليا، ف 41) أو (مصر، ع 35).

برلين! وأما حسن الطالع في هذا فهو أن الكتاب كان محتاجا حقا إلى "تصورات" للمتوسط غير متوسطة وأن الكتيب الألماني وفي بهذا الغرض وفاء لن يفوتنا الوقوف على مغازيه.

ليس هينا أن يجد الناقد لنفسه سبيلا في هذا التيه. فإن غزارة الأشكال والألوان وكثرة المسالك واختلاف المذاهب التي ينسبها المؤلفون إلى البحر وأهله ماثلة في الكتاب أيضا، بل في كل من كتيباته ونصوصه تقريبا. فيكون علينا أن نلتمس في هذا كله معالم لأركان هذا العالم المشهورة من شرق وغرب وشمال وجنوب وما يلي ذلك من أنماط حياة وسلوك وطبيعة علاقات وأن نتفحص بالنتيجة ما يظهر من شرعية لهذه الأركان ولتقبلها الشائع على أنها من معطيات البديهة. ويكون علينا أيضا أن نسأل عن وجود المتوسط نفسه بما هو وحدة من نوع ما وهوية تنتظم هويات. فهل المتوسط من موجودات الطبيعة أم أنه أوجد بعد أن كان مفقودا لدواع بعينها؟ وإلى أي حد تراه أفصح في أن يستوي وعاء وهوية، عبر الأزمنة والأمكنة؟ وما هي درجة وجوده هذه في الراهن وفي القريب؟ وما موقعه من أوعية وهويات أخرى تنافسه أو تجاوره؟ وما مستقبله بينها؟ وكيف وهل يتيسر، في نهاية المطاف، استخلاص صورة واحدة وجد المتوسط أو أوجد عليها؟ أم أن المتوسط يرتد إلى عالمين أو أكثر أو إلى فسيفساء لا يسبغ عليها وحدة ما إلا الاسم وحدود الماء؟ أم أنه في منزلة – أو منزلات – بين هاتين المنزلتين؟

المتوسط موجودا ومفقودا

استدعي إلى عنوان هذا الكتاب واستوى دليلا لمساقاته تصور "التصورات". وهو تصور ألفه البحث الاجتماعي كثيرا في الربع الأخير من القرن العشرين. وينطوي تصور "التصورات" هذا (وكان الأولى أن يقال، بالعربية، "التمثيلات" ولا بأس بـ "التمثيلات" أيضا¹) على فاعلية عملانية عظيمة في دراسة المواقف الجماعية وما يليها من مسالك يعتمد إليها البشر في ميادين لا حصر لها. وهو تصور يتجاوز إشكال العلاقة بين الذات والموضوع وجدال المثالية والواقعية في الفلسفة من غير أن يصوغ بالضرورة حلا لذلك أو يجد مخرجا لهذا. هو يسلك حياهما مسلك الملاحظة والوصف (وقد يغامر بالتعليل) مستغنيا عن التجرد للوصول إلى مبداهما الأول. هو يتيح إذن تتبع العلاقة بين الذات والموضوع بما هي علاقة ظاهرة أو معطاة في اشتباك طرفيها الدائم وبما هي علاقة متغيرة. وأول ما يتعلق به هذا التصور إبراز تبعية ظهور "الواقع" – أي واقع – لاعتماده على أنه كذلك من جهة المخيلة. وهذا من غير أن يفتتت الإبراز المشار إليه على الإمكان المبدئي لتعليل ظهور الواقع على الصورة التي يظهر عليها بعامل (أو بعوامل مختلفة) تفرض

¹ رأينا أن ما نقلته الترجمة العربية بـ "تصورات" إنما هو representations الفرنسية. وفي هذا جنوح لا يصعب تفهمه إلى اللفظ الشائع الأليف. ولكن "تصور" كانت عند قدماء المناطقة مقابل ل concept. وقد هجر هذا التقابل في عصرنا واعتمدت "مفهوم" وهذه كانت عند القدماء مقابل ل compréhension! ووضع بعضهم مؤخرا "أفهوم" ل concept مسلما بجواز الوضع الجديد لمصطلح بلغ 2500 سنة من عمره، وكان قد وصل إلى لغتنا عند بلوغه نصف هذه السن تقريبا! ثم إن "تصور" مشغولة اليوم في عرف المترجمين ب conception. أخيرا لا يظهر من داع، عند التأمل، لاعتماد مقابل في العلوم الاجتماعية أو في التاريخ ل représentation غير مقابلها المعتمد في مصطلح السياسة والمسرح، وهو "تمثيل" و "تمثل".

نفسها على المخيلة من خارج ما. ف"التصور" بهذا المعنى مزج للواقع والمخيل أو هو تخير من جهة المخيلة لواقع محتمل تنشئه المخيلة مؤثرة إياه على صيغ ظهور أخرى محتملة لهذا "الواقع" نفسه. لهذا يبدو التصور، عند النظر في نشأته وسيرته وفي انقضاء أجله، أمرا مدهشا. فلا هو وهم بحت ولا هو واقع ظهرت منه القدرة - بما هو كذلك - على فرض نفسه بنفسه. وإنما هو هذه الصيغة لظهور الواقع والمخيل مشتبكين - على ما سبق القول - في كل دينامي لا يحفل بالتمييز بين عنصري الواقع والوهم في تكوينه وفي حركته.

ذاك هو شأن المتوسط في أكثر مقالات هذا الكتاب. فأول ما يتبدى لنا حين نعزم على الاستهداء بخيط "التصورات" أن "المتوسط" موجود ولد في التاريخ ونشأ فيه وتحولت صورته وأن تواريخ ميلاده هذا وتفاصيل نشأته وملامح صورته تختلف بين موضع وآخر ومن جماعة إلى أخرى. حتى أن ولادته لتبدو حتى اليوم حدثا غير تام الحصول أو غير مؤكده في بعض المواضع أو عند بعض الجماعات. ما الذي كانه هذا البحر قبل أن يستوي في العقول - أو في معظمها، على الأقل - بحرا واحدا؟ كان بحورا، بالطبع، وكان بعض هذه البحور مستنقعات لا أكثر. فلبث الموجود الطبيعي، أي البحر بما هو صفحة ماء واحدة تنماز عن سواها من البر والبحر باتصالها وبحدودها المائلة، عاجزا عن فرض نفسه، بهذه المثابة، مددا من الزمن تفاوت طولها تبعا لاختلاف المشاطئين وغيرهم بعضهم عن بعض.

لم ينفرد العرب باجتزائهم حوض المتوسط الشرقي من جملته إلى عهد قد لا يبعد عنا أكثر من قرنين، مواظبين على تسمية هذا الحوض بحر الروم ومطلقين على غيره من نواحي البحر الواحد أسماء أخرى ومستتكفين عن القرار على اسم واحد للبحر كله، أي عن جلاء "تصور" جامع لهذا البحر (تونس، ف20-23). تقول اليونانية رانيا بوليكنديوتي إن اليونانيين، في عهد السيطرة العثمانية على بلادهم، أوغلووا في العمق المسيحي الأرثوذكسي الذي حفظ لجماعتهم مقومات البقاء المعنوي، وهو بعد غير متوسطي. وكان يلتفتون، من الجهة الأخرى، إلى أوروبا الأنوار وهي تعلي صورة حضارتهم القديمة مشيحين عن البحر المفتوح على بلاد "الكفار". فلم يظهر في كلامهم لفظ "المتوسط" (الذي يسوغ إطلاقه على كل بحر يتوسط اليابسة) علما على البحر المعروف بهذا الاسم اليوم إلا في سنة 1728 (اليونان، ف33). وحين نحا النازع القومي إلى الحلول محل رابطة الدين وخاض الأغرقة الحرب التي ظفروا على أثرها باستقلالهم، في سنة 1830، بقيت أنظارهم مركزة على بحر إيجيه، بحرهم المقدس، وظلوا مستغنيين عن اجترار وحدة للمتوسط يولون أنفسهم فيها موقعا ما، وهذا مع ظهور البحر على أنه مستقر للجزر والمستعمرات ومجال للتبادل التجاري ولتخالط اللغات والثقافات. ومال ما أطلقوا عليه اسم "الفكرة الكبرى" إلى التشديد على اتساع اليونان القديمة بالقياس إلى الحديثة وإلى استنكار الإسكندر وإلى ادعاء الحق في قسم من تركيا الآسيوية وفي تركيا الأوروبية التي أخذوا يضيفون إلى اسمها هذا صفة "المؤقتة". ولكن "الفكرة

الكبرى" بقيت مركزة، لا على المتوسط، بل على تحرير بيزنطية والعودة إلى "اليونان الكبرى" الموغلة في البلقان. وبقيت التأليف الجغرافية اليونانية تغلب، في الوصف، طابع البلاد الجبلي على وجهها البحري. ولم يظهر المتوسط على أنه "وحدة دراسية"، مع تركيز التدريس على تركيا الأوروبية، من جهة، وعلى "الغرب" من الجهة الأخرى (اليونان، ف 33-41 و 44).

هذا وفي "رحلات" كتبها أغارقة القرن التاسع عشر وفي النثر الأدبي، على التعميم، يبقى النظر نائيا عن البحر، إجمالاً، فيقتصر ظهوره على الحياة اليومية في الجزر وتقاليد الصيادين ولا يظهر المتوسط بما هو مدى ووحدة. وتمتد هذه الحال إلى الشعر الذي قد يبسط القومي منه ظل الأغارقة على حوض المتوسط الشرقي ولكن لا تظهر، مع ذلك، هوية متوسطة لبلاد الإغريق. وأما اتخاذ البحر الواسع أفقا فكان عليه أن ينتظر القرن العشرين وشعر ما بين الحربين. ولكن هذا المتوسط بقي "متوسطا صغيرا" اجترحه الأغارقة لأنفسهم مستلهمين "الفكرة الكبرى" المتصلة إليهم من القرن السابق ومغلبين "الروح الإيجية" التي اتخذت بحر إيجة بصفته بحرا للأصول عمّ ظهوره سائر الفنون. بقيت أيضا روح البحر، من غير تعيين، روح فرار وسفر وبحث عن المعرفة وروح حركة يفرضها العيش في الجزر. إيجة أولا، إذن، والمتوسط الشرقي توسعه وانتشارا ومعهما التقليد الهليني المتصل بالحياة في البحر. وأما الوعي المتوسطي العام ضعيف في القرون الأخيرة، جملة، يظهر عند الابتعاد عن المتوسط ليرز ألفة هذا البحر في وجه وحشة المحيط وهول مداه أو هو يظهر عند الوقوف على آثار خلفها العرق الإغريقي في أصقاع الضفة الأخرى (اليونان، ف 42-56). وهذا كله في بلاد هي شبه جزيرة وأرخبيل، لا يعوزها المجد البحري القديم، ولها في العصر الحديث أسطول تجاري فائض عما يفترضه حجمها وهي، قبل هذا وذاك، بلاد عوليس!

أحواض وسدود

ولا يغادر الإسبان – والكاتالونيون منهم، على الأخص، وهم أصحاب الواجهة المتوسطية لشبه الجزيرة – هذه السنة الأيلة إلى تقطيع المتوسط أحواضا وبناء السدود المعنوية بين أجزائه أولا وبين أهلي ضفتيه المتقاربتين جدا على طول جزء من ساحله الإسباني. فهم إذا انتسبوا إلى بحر كان ذلك المتوسط الغربي لا البحر الداخلي كله. هذا الأخير لا يظهر إلا في المراحل التي يتماسك فيها مشروع إمبريالي، على ما يشير إدواردو غونزاليس كاليخا (إسبانيا، ف 41-42). وهو، في هذه الحالة نفسها، يتمخض عن صورة للجنوب تغلب عليها السلبية. هذه الصورة حشر فيها عالم المسلمين مع الحدّين المصيريين اللذين حملهما عام 1492 إلى إسبانيا والمتوسط، وهما سقوط غرناطة واكتشاف أميركا. فقد تلاشى، بعد ذلك العام، ما كان من تناضح ثقافي بين الإسبان والمورسكيين (المشاركة) وتراجعت، على الصعيد الأوسع، مكانة المتوسط، تراجعا زگاها أيضا إتمام البرتغاليين دورة بحرية حول إفريقيا. فكان أن محور العالم انحرف – على ما رأى فرنان بروديل – إلى

الأطلسي وأذن مجد كاتالونيا البحري بالذواء. وقد استقر لشمال إفريقيا وأهله، في هذا المساق، مثال مقولب جاز القرنين الإِسبانيين الخامس عشر والسادس عشر وانتشر ظله، مع سقوط القسطنطينية، ليشتمل على الترك أيضا (إسبانيا، ف 43 و46).

هكذا لم يكن شرق المتوسط بمنجاة من هذه القولية. وزادت هذه رسوخا مع بروز "المسألة الشرقية" في القرن التاسع عشر. فتراى هذا الشرق للإِسبان (ولغيرهم من الأوروبيين) إقليما للتأخر والاضطراب وللغربة. وكان أن نصبتة الحركة الرومنطيقية نقيضا للغرب، متقلا بأحلامه وخرافاتِه، باقيا على قديمه، متطيرا، يواجه بهذه الأثقال واقعية الغرب وعقلانيته وأخذة بناصية التقدم. وما لبث العصر الإمبريالي أن أمَدَّ صورة الشرق بملاح معنوية ومادية معلومة، مازجا فيها ما بين الاستبداد والروعة والقسوة وتعطيل العقل وفساد الأخلاق والميل إلى الكتمان واتخاذ الكذب عادة وبين الحريم والعبيد والمردان والأمراء الرهيفي الذوق وحجاب النساء والرقص الغريب والشهوة العارمة، إلخ. (إسبانيا، ف 49-50).

على أن هذا التمثيل الفاقع الملاح للشرق لم يمنع إسبانيا من النزوع، في هذا النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى نوع من التماهي الإفريقي بالغرب المسلم، وهو في حالتها المغرب الواقع على بعد فراسخ من شواطئها، وقد بقيت تجاذب سواحلها قرونا وجرّدت عليه في 1859-1860 حملة شحنت لها طاقات ضخمة، وهذا في وقت كانت تشق فيه قناة السويس التي ردت إلى المتوسط دور المعبر الحيوي للتجارة العالمية بعد أن فقد مجد المركزية الذي كان له في عالم ما قبل كولمبوس. كانت القوة الإِسبانية قد تضاءلت في البحر من جراء الملحمة النابليونية و الهيمنة البحرية البريطانية. وقد أورت هذا التراجع تشوُّشا لصورة المتوسط وانكفاء على استسراق يرقى إلى القرن السابع عشر محصور في التراث العربي-الإِسباني. ولكن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد بروز "التصور" القائل إن أوروبا تتوقف عند أقدام البيرينيه وإن إسبانيا بلاد إفريقية. وكان هذا غطاء معنويا للتوسع الاستعماري في إفريقيا و على الأخص، لمناوأة المطاعم الفرنسية في المغرب. مع هذا، بقي "التأفرق" الإِسباني هذا نازعا إفريقيا أكثر مما كان انتسابا إلى المتوسط (إسبانيا، ف 51-52). فقد ظل هذا الانتساب ضعيفا ولم يشهد تجددا إلا في كاتالونيا حيث حفزت إليه يقظة القومية الخاصة بالإقليم فاستوى، في السنوات الأولى من القرن العشرين، برنامجا ثقافيا كانت الحركة الموسومة بال"نوسنتية" أبرز تجلياته. فوصل البعض من أركان هذه الحركة إلى حد اجترار "عرق متوسطي" يواجه الأري والسامي. وأبرزوا التشابه بين البحرين الإغريقي والكاتالوني، مجتهدين في تحديث (لا يكون مجرد استعادة) للمرجعية الإغريقية اللاتينية. كانت هذه "المتوسطية" تجبه "ضباب" الحداثة الجرمانية، أول ما تجبه. على أنها لم تكن متوسطية شاملة. فهي قد انطوت على ازدياد لثقافة الجنوب العربية وللإسلام. وكان مشروعها ينطوي على توق إلى إمبراطورية معنوية تبسط الظل الإِسباني على

المتوسط بعد أن ترقى بكاتالونيا إلى مقام يخولها الإمساك بدفة شبه الجزيرة (إسبانيا، ف 65-79).

لم يصمد القول بـ"مصير إفريقي" لإسبانيا لعواصف الثلث الثاني من القرن العشرين وهو الذي شهد الحرب الأهلية الإسبانية والحرب العالمية الثانية وتصفية الاستعمار. ولدت من ذلك كله نظرة أكثر شمولا للمجال المتوسطي وأخرى أكثر احتراما لدول جنوب المتوسط عزّزها، شيئا ما، سمك المغرب ونفط الجزائر. ولكن المتوسطية الجديدة غلبت اعتبارات الدفاع الاستراتيجي وألحقتها بهمّ الاندراج في المؤسسات الأوروبية (إسبانيا، ف 104-108). هكذا تصدرت إسبانيا حركة التعاون الأوروبي المتوسطي واستوت برشلونة منطلقا لهذه الحركة ومركزا شهد أبرز محطاتها. غير أن الاستراتيجية والتعاون لم يحيدا المتوسط الجديد إلى مجال تركّز فيه إسبانيا أعلام هويتها. فمجال الهوية هذا ما هو اليوم إلا أوروبا. وما المتوسط إلا مكوّن من مكوّنات يستتجيب دورها لدواعي التوازن الداخلي في القارة. فهو يشدّ أزر جنوب القارة في مواجهة شمال يضمّ دولا كبيرة ومقتدرة فضلا عن اشتماله على المناطق الغنية المتقدمة من دول أخرى. إلى ذلك يطغى على المتوسطية الجديدة همّ علاقة بشرية بالضفة الجنوبية (هي علاقة الهجرة) مليئة بالهواجس (إسبانيا، ف 120-122). وهي علاقة باتت مقوّمًا داخليا من مقوّمات المجتمعات الشمالية نفسها وسؤالا كبيرا مطروحا على سياساتها واقتصادها وعلى ثقافتها أيضا. ولا مرأى في أن إسبانيا، وسواحلها أقرب السواحل الشمالية إلى "أهل القوارب" الجنوبيين وهي قريبة من الضفة الأخرى إلى حد لمسنا بعض مفاعيله التاريخية، إنما هي دولة ومجتمع يتعذر عليهما أن يبقيا بمنأى من هذا السؤال. عليه كان المرمى الأول "المتوسطيتها" الملحقة بـ"أوروبيتها" (وكلاهما جديان، بمعنى ما) أن تصلح سبيلا إلى سياسة هذا المشكل ومدارة آثاره القريبة والبعيدة. ولا تكفي العصبية الكاتالونية لجعل هذا الأمر غير ما هو عليه.

ذاك تقريبا ما يقوله كاليخا. ومعناه أن حضور المتوسط الواحد في إسبانيا بما هو مرآة تتعرفها إسبانيا وتتعرف فيها ذاتها، على نحو من الأنحاء، بقي حضورا ضعيفا على الإجمال. وكان هذا الحضور، حين يخرج شيئا ما عن ضعفه، يتمخض عن مشكل يحيل المرأة كسورا أو ينشر عليها بقع الغبش. فما الذي يعنيه غير ذلك التحصن في الحوض الغربي أو الزراية بالشرق والشرقيين أو النظر إلى الجنوبيين بما هم أقوام لا تستدعي حالهم إلا بسط اليد عليهم أو اعتماد الأفق الإفريقي عند الميل إلى اعتزال أوروبا أو تغليب النظر الاستراتيجي إلى المتوسط تغليباً يرى الأفق المتوسطي موثلا محتملا أو محققا للعداوات أو اتخاذ المبادرة في ميادين الشركة الأوروبية المتوسطية، لا سبيلا مطروقا لوجهة أصيلة فيه، بل وسيلة لموازنة الأرجحية الشمالية في وحدة أوروبية عادت هي الهم والمبتغى؟

بحر آل كركنة

ضعف المتوسطية هذا وتجزئة المتوسط والشحنة السلبية الكامنة في مجرى العلاقة به نشعر بها كلها، ولكن في لبوس مغاير، عند التونسي صدوق بوبكر. فهو يبدأ مزكياً ما لتصور "التصورات" من وجهة فيؤكد أن المتوسط تولد في عقل البشر (تونس، ف 19). وهو ما يوافق عليه جملة الباحثين في هذا التأليف تقريبا. ومعنى هذا أن المتوسط لا يكفيه حتى يوجد أن يكون موجودا طبيعيا. بلى يوضح بو بكر أن تسخير طاقة البخار وما أعقب من تقصير للمسافات وما واكبها من بدايات للجغرافيا الوصفية صنعت لهذا البحر وحدة ما (تونس، ف 19). ولكن على أي نحو تجلت هذه الوحدة (أو أخفقت في التجلي) للتونسيين قبل البخار والجغرافيا الوصفية وبعدهما؟

يبتدئ بوبكر - وهذا ابتداء خليق بتونسي - من ابن خلدون. فيقع عنده على وصف إجمالي ل"بحر الروم" أو "بحر الشام" يبدو غير غافل عن وحدة الماء. فهو يحصي أهم مضيقين يحدان البحر من جهتين: بين طنجة وطريفة وعند بيزنطية. وهو يحصي أهم الجزر أيضا ويذكر لهذا البحر سواحل ثلاثة يخطئ في حدّ "المغربي" (أي الجنوبي) منها إذ يظنه ممتدا من الإسكندرية إلى فرنسا! ولكن عالم ابن خلدون مقسم إلى "مناخات" تتشكل من "أقاليم". وهذه لا تلبث أن تذهب بوحدة البحر بما هي أساس ممكن لوحدة الأراضي المساحلة له (تونس، ف 20-21). بعد ذلك يقف الباحث عند خرائط وضعها آل الشرفي في القرنين السادس عشر والسابع عشر تتخذ المتوسط مركزا للعالم قبل أن تقسمه - لأغراض التجارة لا الحرب - إلى سبع عشرة منطقة يرسم حدودها توزع المضائق والمرافئ (تونس، ف 21-23). وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر يبدو مكان البحر عند ابن أبي دينار هامشيا في وصف تونس. تهونّ من أثر هذا التهميش أصول الرجل الريفية ومعها ضعف أهمية المدن في تونس التي عرف. ولكن ما يقلل من أهمية الواجهة البحرية عنده إنما هو غلبة الحد الفاصل بين "دار الإسلام" و"دار الحرب". فهذا الحد علم على هوية لا تقوى عليها أمواج البحر الذي يرتدّ إلى صفة الحد الطبيعي لا السياسي (تونس، ف 23-24).

وإذا نحن وقعنا على تمجيد للقرصنة، عند تونسيين من واضعي الحوليات، بدت القرصنة محتاجة ليستقيم تمجيدها إلى صور الغزو الصحراوية. وعلى هذا، يلبث الإلهام البحري في الأدب ضئيل الوقع أيضا. ولا تحول هذه الحال في ما وصل إلى يد الباحث من أعمال خلفها تونسيو القرنين التاسع عشر والعشرين. فإذا ذكر ابن أبي الضياف الوقائع البحرية أتى بوصف برّي لها. وإذا احتدمت حركة البحث عن هوية للبلاد التونسية وقعنا على العربية من الهويات وعلى العثمانية وعلى الإسلام وعلى تونس نفسها وعلى الأوروبية ونحّي المتوسط جانبا أو كاد (تونس، ف 24-26). وذلك أنه لا يكاد يشدّ عن هذه السوية إلا كتاب واحد عنوانه *جولة بين حانات البحر المتوسط* نشره علي الدوعاجي سنة 1935! جاء هذا الكتاب ردّ فعل على

الإفراط الاستعماري في بسط هوية لاتينية مسيحية على المغرب كله، وكان المجمع الأفخارستي المعقود في قرطاجنة سنة 1930 واحدا من تجلياتها الفاقعة للغاية. ومع أن الدوعاجي لا يكتفم تمنيه الانتساب إلى حضارتي الشرق والغرب معا شأن الرجل المسلم الذي يتزوج من امرأتين، فإنه عالم بإنكار الغربيين هذه المنية عليه. ثم إن البحر لا يحمل إليه غير دوار البحر! (تونس، ف 26-28).

هذا الدوار ملازم بصورة ما لتاريخ تونس البحري من القرن السادس عشر. فقد صحب البحر تونس ولكنه لم يأتيها إلا بالمصائب! طبع العنف هذه الصلة: من أعمال القراصنة إلى الهجمات البحرية الأوروبية. ولم يكن احتلال قوات المحور البلاد ثم حلول الحلفاء محلهم في الحرب العالمية الثانية إلا آخر عنقود النكبات. هكذا بقي الساحل التونسي، مدة قرون، أميل إلى الولاء العثماني فيما نحا الداخل نحو لون من الاستقلال (تونس، ف 31-32). وفي مرحلة العمل المعادي للاستعمار، بزغ الشعور بوجود قوام سياسي خاص للوطن التونسي. على أن هذا البزوغ لم يمنع التشديد، في مرحلة أولى، على هوية شرقية لتونس: إسلامية أو عربية أو سامية. وهو ما أخذت الوطنية التونسية تتجاوزه في ظرف ما بعد الحرب الثانية. وأما "الشعور المتوسطي" فتقلص في هذه المرحلة إلى حدود الحوار التونسي الفرنسي. وبدا متوسط بورقبة مجزأ، على الرغم من مباشرة الإعلام الترويج لتونس بما هي "ملتقى الحضارات المتوسطية" واعتماد الاتحاد العام للشغل أيضا نسبة البلاد إلى المتوسط. فإن هذا التنبؤ - على ما يرجح بو بكر - لم يجز نطاق الضرورة السياحية (تونس، ف 35-38).

على صعيد آخر، كان البحر، في معظم المراحل، مصدر معيشة لجانب كبير من سكان البلاد. وتراوحت وجوه الإفادة منه، في القرون الأخيرة ما بين التجارة والقرصنة والصيد. غير أن هذا البحر هو بحر تونس أكثر مما هو البحر المتوسط. فإذا وسَّعه تصدير "الشاشيات" التونسية فهو يذهب به شرقا. وإذا وسَّعته الاستثمارات الفرنسية ذهبت به غربا وبقي التونسيون، على الإجمال، في خارج دائرة الإفادة من عوائدها، إلخ. ولكن البحر يضيق قبل ذلك إلى حد يبيح لعائلات تكسب رزقها من صيد الأسماك أن تستملكه كما يستملك أهل الفلاحة الأراضي. هكذا نفع على بحر لآل كركنة وبحر لآل زرزي وهلم جرا (تونس، ف 38-40). وهذه، على ما يبدو، خصلة لا يختص بها التونسيون وحدهم. فإن المغربي عبد المجيد القدوري يشير إلى أن المغاربة أيضا لا يكفونهم أن يكون لطنجة بحر وللمليلة بحر آخر فيخصون الأولياء عندهم ببحار يحمل كل منها اسم صاحبه (المغرب، ف 30).

مع ذلك، شهد عهد الاستقلال توجه تونس المعلوم نحو أوروبا. وهو بدأ باتفاقات توالى عقدها في مرحلة الحرب الباردة ثم أفضى، في تسعينات القرن العشرين، إلى إقبال تونس على الشراكة الأوروبية المتوسطية. فكانت تونس أول من وقع الاتفاق الذي أنشأ هذه الشراكة من بين دول الجنوب. ولكن بو بكر يشير إلى

القيود التي وضعها الأوروبيون، في المدة نفسها، على انتقال المهاجرين من الجنوب إلى بلاد الشمال. وهذا لينتهي إلى بيت القصيد وهو أن توطيد المجال المتوسطي يقتضي صمود الفائدة المشتركة فلا يكون هذا "المتوسط" خيرا لأطراف وشرًا على أخرى (تونس، ف 40-42). وفي هذا إشارة نقع على ما هو في معناها عند معظم مؤلفينا. ومفادها أن بحر العداوات أو بحر التناذب – وهذا ما كانه المتوسط في مراحل مديدة من تاريخه – قد تقرب ضفافه مطامع الأقوياء وقد تباعد بينها حصونهم ولكن ما يصحب ذلك من مقت الضعفاء إياهم ومن ازدرائهم الضعفاء لا يثمر هوية واحدة.

نحن حتى الآن أمام متوسط ضعيف القوام، يضم ويتمدد، ويتردد في الوجود طالما كان وجوده متعلقا برغبات مساحليه وكانت هذه الرغبات مشوبة بما يزرع في مياهه السدود والحواجز أو كانت سطحية تذهب بها أمواج الحوادث. ولن نقع، في سائر ما ضمه هذا التأليف من أعمال، على متوسط يخالف هذه السيرة. رغم ذلك تتبدى للمتوسط في ما تتناوله الأبحاث من أعمال وفي ما تعمد إليه من تصنيفات وفي نصوص الأدباء أيضا، صيغ وجود كثيرة.

سؤال الوظيفة

ثمة أولًا متوسط وظيفي. وهو أول ما يترأى خلف ما لمسناه عند مؤلفين مختلفين (وكان يسعنا أن نلمسه عند غيرهم) من وجود مشكل للمتوسط... وجود يبدأ الإشكال فيه من كونه ابنا لتواريخ مختلفة يختلف ظهوره باختلافها ويبدو هو نفسه معلقا على أفعال تجترحها المخيلات المتكونة في تلك التواريخ والمكوّنة لها في آن. هذا المتوسط المقطع، الضئيل المادّة، الذي يفرض على أهله الابتعاد عنه (أو عن بلادهم، في الأقل) حتى يبصروا له نوعا من أنواع الوحدة، يختلف تقدير المؤلفين ومن يروون عنهم لوظيفته الجامعة. فيسهل على الأدباء منهم أن يغلبوا في تقديرهم لعمله صفة الوصل على صفة الفصل. يسعفهم في ذلك، على سبيل المثال، هلال عربي- إسلامي لاحظ أحدهم (وهو الفرنسي جان كلود إزّو) وجوده على علم قرية إيطالية (فرنسا، ف 10). على أن ميزات أقرب إلى الجدّ للمتوسط يستدعيها آخرون لإيلاء هذا البحر مهمة الجسر على أنها وظيفته الغالبة. من ذلك سعته المحدودة بالقياس إلى المحيط ووقوعه بين قارات ثلاث. وهذا موقع يغري هيغل، مثلا، بالبحث عن وجوه شبه بين مساحلي ضفافه كلها تقرب ما بينهم وتبعدهم عن أهالي الدواخل القارية في بلادهم نفسها (ألمانيا، ف 50-51). ومن ذلك أيضا أوصاف البحر الجغرافية أي ما يحتوي عليه من مضائق ومن جزر وأشباه جزر تقرب، في مواضع بعينها، شماله من جنوبه (فرنسا، ف 120). وهذا ضرب من تسويغ للقول بغلبة الوصل على الفصل في المتوسط لم يفت بعض الجغرافيين (من الألمان، مثلا) أن يأخذوا منه بنصيب (ألمانيا، ف 55-58).

على أن وظيفة الوصل هذه، إن هي أغرت بعضا من أدباء هذا التأليف فهي ضعيفة الإغراء لمعظم باحثيه. فهؤلاء لا يسعهم الإعراض عن متوسط الجغراسيا

ولا عن متوسط الإستراتيجية على نحو ما يتراءى لهم أو على نحو ما تراءى لأسلاف أو لمعاصرين تعين على الباحثين أن يُصدوا لهم. وفي مجالي الجغراسيا والاستراتيجية تحضر علاقات قوة وعداوات وتحضر أحلاف أيضا يشي تقلبها ببرودة في الحساب تجافي ما يتلمسه الأدباء من حرارة في التواصل تكاد تبدو، عند هؤلاء، مستمدة من شمس المتوسط بلا واسطة. ويمنح التاريخ السياسي والعسكري بعدا زمنيا لمعطيات الجغراسيا والاستراتيجية ويزودهما من حوادثه الغزيرة ما يحتاجان إليه من الأمثلة. ويزودهما تقابل الحضارات، من جهته، قاعدة شبه ثابتة تنسجان عليها ما تنسجان من قرن إلى قرن. فيشير الفرنسي رينيه بينون، مثلا، في عشايا الحرب العالمية الأولى، إلى أن ما يقرب بين أرجاء المتوسط (أي المضائق والجزر وأشباه الجزر...) هو نفسه ما يحمل على التنازع وأن شواطئ المتوسط تحصى بين أكثر بقاع الأرض تشبعا بالدماء (فرنسا، ف 120). ولنا في كل حال عودة إلى هذا كله.

متوسط الحواسّ والطبائع

قبل ذلك، يتعين علينا أن ننظر في متوسط آخر نسيغ تسميته متوسط الحواس، وهو يلي مباشرة، في التصنيف الذي نأخذ به، متوسط الوظيفة. ينتشر على ضفاف هذا المتوسط ما يسميه كاليخا "فنا" متوسطيا "للعيش". وهو فن يستمد طاقته وقواعده من الشمس، أولاً، ومن حضور الماء، بطبيعة الحال، ومن اعتدال المناخ ومن روعة في المناظر يعززها تنوع التضاريس والنبات وأنماط البناء وما يليها من أعمال الإنسان، وتبقى متّصفة، في كل حال، بإنسانية المقاييس وبما يتبعها من انسجام وألفة. وهو أيضا فنّ يتفنتق عنه مزاج فردي وجماعي يوصف بأنه فوّار نزويّ وساخر لعوب (إسبانيا، ف 129-131). عليه ينطلق المصري إدوار الخراط من إسكندرية اليوم في جولة متخيلة بين حواضر قريبة وبعيدة صنعها تاريخ المتوسط وصنعتة، ليقع هنا وهناك على الاحتفاء بجمال الحياة وبمسرات المعرفة والنشوة بالحب، وعلى ردّ للمطلق الصحراوي الحارق أو الجبلي الصلف إلى سويّة يأنس بها البشر (مصر، ع 45-46). والضوء أيضا أول ما يكتنفنا في نص الفرنسي إزو، يليه تكسرّ المشهد وتعرج المسالك في مدن لا تفرط بحقوق المفاجئ والمدهش ولكن يظهر التنوع فيها وكأنه هو نفسه الوحدة (فرنسا، ف 7). ولا تغادر التونسية أمانة بلحاج يحيى هذه الخطة، بل هي تضيف إلى ألفة الشمس المتوسطية وما يتصل بمادة البحر من مادة الطفولة والذكريات شعورا بسيولة في التاريخ المتوسطي تمتزج فيها الهويات وتجعل من البحر نقضا للمبنى الناجز وللمتحف (تونس، ف 7-8). هذا البحر نقيض للمحيط أيضا. هذا، في أي حال، ما يلاحظه نفر من مؤلفينا بينهم اليوناني تاكيس تيودور وبولس الذي يمازح عوليس منكرا عليه أن يكون اكتشف شيئا لم يكن يعرفه وأن يكون قد رمى إلى اكتشاف نفسه أصلا على حد زعم شاع بعد هوميروس بأزمة مديدة. وذلك أن المتوسط لم يكن مجهولا أبدا وأن الاستكشاف همّ يتعلق بالمحيطات (اليونان، ف 8-9).

هذا "المنظر" المنتشر على ضفاف المتوسط يتخذه بعض مؤلفينا - بشمسه ولون مياهه وحركتها وبزيتونه وبياض بيوته - مهوى لأفئدتهم (مثلا: تونس، ف 8-9 وإيطاليا، ف 7-9 وإسبانيا، ف 15 و 30). هذا فيما لا يرى فيه آخرون غير "منمّطات" سياحية وبطاقات بريدية (مثلا: تركيا، ف 7-8 و 58)... وأما "فن العيش" الذي يتبعه فالظاهر أنه موسوم بنوع من الإقبال على متع الجسد كلها لا يمنع ميلا آخر إلى التفرع للتأمل في كبريات المسائل المطروحة على البشر. وهو موسوم أيضا بالاقتصاد في الجهد اللازم لكسب المعاش وبالتعلق بضروب التسرية عن النفس وبالقيولة. ويلازم هذا كله إقبال على التخالط وعلى تعهد مواضعه ومناسباته واهتمام بارز بما هو عام أو مشترك. فلا يولي المتوسطيون ظهورهم لما يدخل في هذا الباب من شؤون بل يظهرون حرصا على الانغماس فيها بالفكر والعمل. (إسبانيا، ف 90 و 129-131). هذه سمات تنتقل بنا من "متوسط الحواس" إلى "متوسط الطبائع". ولا تخلو هذه السمات التي يفترض لها بعض مؤلفينا عمومية ما أن تنشئ شيئا مرموقا بين أشياء الحضارة المادية وصورها. وأكثر ما يتبدى ذلك في

المطبخ، وهو موصوف بالتنوع والرهافة وبما تحمله كثرة الخضار فيه وزيت الزيتون² وصحبة أصناف الفاكهة العديدة من حفظ للصحة ومتعة للمتذوقين. ثم نصل إلى طرز العمارة وتجهيز البيوت وإلى تنظيم المدن (إسبانيا، ف 129-131)... وقد ألمحنا إليها.

الإسلام وولادة الشرق والغرب

حتى إذا وصلنا إلى أشياء الحضارة المادية أمسينا على خطوة من مدنيّات المتوسط التاريخية بعمومها. فهذه المدنيّات ماثلة بمثل بقايا أثرية منها منتشرة على ضفاف هذا البحر كافة، وهي مكوّن رئيس من مكوّنات "المنظر" المميز لهذه الضفاف شأنها شأن العامر من المدن والقرى³. والمدنيّات ما ثلة أيضا بما خلّفته من تقاليد الاعتقاد وبالآداب والفنون وأعمال الفكر. وهذه تراثات لا تزال شعوب المتوسط تنسب نفسها إليها على أنحاء وإلى درجات مختلفة. وإذا كان لا يخفى على الشكاكين من مؤلفينا - وجلهم شكاكون - أن ما سبق إحصاؤه، تحت بند "الحواس" وبند "الطبائع" وبند "الحضارة المادية" لا يعدو كله أن يكون سندا هشًا للقول بـ"جامعة" متوسطة، فإن حديث المدنيّات يمهد عن كذب لحديث التوزع والمواجهات. فنحن نعاين على معظم الضفة الشمالية حضورا غالبا للتراث اليهودي-المسيحي وللتركة الإغريقية الرومانية التي نشأت بينها وبين التراث المذكور علاقة تكامل وتزاحم معقدة في قرون المرحلة التي افتتحها عصر النهضة الأوروبية. ونحن نعاين على معظم الضفتين الجنوبية والشرقية وفي تركيا، إلى الشمال، حضورا غامرا للإسلام ولحضارات أخرى سبقته بينها الفرعونية والفينيقية وفرعها القرطاجي ولأخرى تبلّرت في كنفه، إلى هذا الحد أو ذاك، وأهمها العربية والتركية والبربرية. وما من ريب في أنه قد حصلت بين هذه التشكيلات، على اختلافها، حالات تخالط وتمازج تاريخيين. فإن للديانات التوحيدية الثلاث، أولا، منبعا واحدا تنتسب إليه ثلاثتها. وهي قد تساكنت في مناطق كثيرة من حوض هذا البحر ولا تزال هذه المساكنة حاصلّة، على علاقتها، في كثير منها أيضا. ولم يبق الإسلام، مثلا، بمعزل عن التقليد الإغريقي، فإن أثر هذا الأخير معلوم فيه. وتذكر الأندلس الإسلامية بأنها بقيت عهودا طويلة موئل تحاور وتمازج بين تركات الأديان الثلاثة مفتوحا أيضا أمام حكمة الأغارقة القدماء. وهو أمر يقدره أندلسيو اليوم وغيرهم من مواطنيهم الإسبان - على ما ينوّه به كاليخا (إسبانيا، ف 89) - ويدخلونه في تصوّرهم لهوية بلادهم وفي عنايتهم بما لا يزال ماثلا من معالم الأندلس الإسلامية ويعتمدونه مكوّنًا من مكوّنات "متوسطيتهم" التاريخية.

على أن خبرات التمازج هذه لم تحل دون ارتسام حدّ واضح بين عالمين يفتسمان شواطئ المتوسط. فتوزعت الأصقاع المحيطة بهذا البحر - من غير أكثرات يذكر بجهة شروق الشمس وجهة غروبها - توزعا ظاهر العناد بين شرق

² يحتل الزيتون وزيته مكانة متصدّرة في هذا كله. ويذكر إلياس خوري كلاما لفارق مردم بك مفاده أن أكثر ما يقرب بين المتوسطيين إيمانهم الراسخ بأنه "لا يوجد زيت إلا من زيتون!" (لبنان، ع 62)

³ ذلك ما يوحي به، على سبيل المثال نص الأديب فنشنسو كونسولو، في الكتيّب الإيطالي، وعنوانه "اطلال سرقوسة".

وغرب. وغلب الإسلام على الأول وغلبت المسيحية على الثاني. ويردّ هنري بيرين هذه القسمة إلى ظهور الإسلام نفسه وتوسّع رقعته، ويوافقه على هذا التقدير تلميذه فرنان بروديل، وكلاهما فرنسي والثاني منهما "نظري" المتوسط الأول، بين المؤرخين، بل هو "مخترعه" بما هو عالم ذو قوام خاص (فرنسا، ف 106-108 وإسبانيا، ف 112، وألمانيا، ف 43). هذا ولم يكن مجرى العلاقات بين الشرق والغرب هذين سمنا وعسلا في أي وقت وإنما ظل محتدما بنزاعات كثيرة بين دول وإمبراطوريات تعاقبت على الإمساك بمقاليده العالمين المسيحي والإسلامي على مدى القرون وسعت في مراحل الحملات الكبرى إلى نقل تخوم العالمين وإلى بسط يد أحدهما على الآخر، وأمكنا ذلك، بالتناوب، إمكنا جزئيا طوال أحقاب لا يستهان بها من الزمن. ولم تكن الحروب تغلق دائما أبواب التواصل من تجاري وغيره بين العالمين. ولم تكن سيادة نوع من السلام الإجمالي تحول دون التناوش أو القرصنة. ولم تحل المواجهة بين الشرق والغرب دون نشوب حروب يتعذر إحصاؤها في الشرق أوفي الغرب. هذا بين حتى ليكاد مؤلفونا يستغنون عن ذكره. وحين كانت تخبو نيران الحروب الكبيرة، كانت خطوط التجارة تنشط في البحر. ولكن التواصل كان يبقى موضعيا بطيء المفاعيل. وكان المتوسط يستوي، على التغليب، حدًا لا طريقا. وهذه حال لم تحل حتى العهد القريب الذي شهد غلبة الرأسمالية في الغرب وشهد نشوء الاستعمار والتبادل المعزز بتفاوت القوة والنمو، على كل صعيد تقريبا.

لا يبدو هذا الإرث الثقيل – بخيره وشره – منقطعا، عند مؤلفينا، عن مصير المتوسط الحالي بما هو مجال لشبكة من الصلات المتضاربة الأوصاف ولا بمصير المتوسطية بما هي هوية يأخذ بها أهل المتوسط أو لا يأخذون ويدرجونها – إذا أخذوا بها – بين هويات أخرى لهم إدراجا قد لا يستغني عن قليل من القسر أو كثير. أما الإسلام، في العصر القريب، فحملة ضعف أهله، في هذا المعمعان، على نوع من طلب السلامة والاكتفاء بردّ الغائلة، مع أنه لم يردع نفسه عن التجع على مجده الأندلسي. وأما إذا اعتمد قوم من أوروبي المتوسط، بين الحربين العالميتين، ميراث المتوسط اللاتيني فإنهم يدخلون فيه مآثر الإغريق القدماء، باعتباره خلفهم الشرعي، وينكرون المآثر المذكورة على يونان اليوم موحين بأن مرور الزمن قد غير عنصر هؤلاء وأنهم لا يستحقون تاريخ بلادهم (ألمانيا، ف 54-55). ولم يخل هذا الاعتماد – وهذا بيت القصيد – من تعزيز للشهية الاستعمارية المركزة على أقطار الجنوب. فاللاتينية تعني بين ما تعني حقوقا للآتين القرن العشرين لم تجبها دهور الانقطاع ورسوخ الإسلام المتماذي، لا في ليبيا ولا في تونس والجزائر. هذه الحقوق رومانية من حيث الأصل، وهي مسيحية في لبوسها الحاضر ويحمل ألويتها إيطاليون أو فرنسيون... المتوسط "بحرنا" إذن، وهو غير معروض للمقاسمة، بل إنه قد لا يتسع للإيطاليين وللفرنسيين معا، فما بالك به إن كان اللعاب الإسباني يُسيله المغرب وبعض الجزائر؟ المتوسط Mare Nostrum، وحقوق لويس برتران فيه هي نفسها

حقوق يوليوس قيصر⁴ (فرنسا، ف 55-60 وإيطاليا، ف 26-30 وإسبانيا، ف 10-11 و 53-63 و 77-81).

حتى إذا نظرنا عن كثب في أمر هذه التقاليد المتحدرة من مدنيات قيض لها أن تحفّ هذا البحر، وقعنا على مواريت متنوعة نماها الخلف بعد السلف من فنون وآداب ومعارف وأفكار. فعلى ضفاف المتوسط، قديمه وحديثه، تحققت – والعبارة لواحد من باحثينا – أرفع كثافة للفنون في العالم (إسبانيا، ف 129). والمتوسط مهد أشياء كثيرة يجعل جورج دوبي في مقدمها الدولة المنظمة حول القانون والجيش والمجال الذهني القائم على امتلاك ناصية الكلام وعلى تعهد الفلسفة والمعارف ومعه المجال الروحي المميّز بالتوحيد (إسبانيا، ف 36). وقد وسع باحثينا أن يقيسوا درجة تبلر المتوسط، بما هو موجود ذهني، بتتبع الصيغ التي اتخذها ميلاده وظهوره في منظومات فكرية أو معرفية مختلفة: من التاريخ إلى فلسفة التاريخ ومن الجغرافيا الطبيعية إلى الجغرافيا البشرية ومن الرحلات إلى الخطب السياسية، إلخ. ذلك، على سبيل المثال، ما يفعله تييري فابر الذي تتخلل بحثه مقتطفات طويلة انتقاها من مدونة فرنسية شاسعة تبدأ بمعاجم اللغة القديمة وتنتهي بمقالات مستشرقين وصحافيين ما يزال بعضهم على قيد الحياة. وينهج غريغور ميرنغ النهج نفسه، تقريبا، في ملاحظته تحولات المتوسط عبر مدونة ألمانية مترامية الأطراف أيضا. ولا يستغرب أن "متوسطات" عدّة تتمازج في الأدب: من غوته إلى كامو. فتظهر الشمس والموجودات الطبيعية الأخرى، مثلا، ومعها السحنات و"الطبائع" وأشياء الحضارة المادية، إلخ. ذلك ما يصنعه، على سبيل المثال، أديب من أدباء التأليف الذي نحن بصددده هو الإيطالي فنسنتسو كونسولو، إذ يقدم نصا (أشرنا إليه) ينطوي، تحت غلالة التجوال الحر بين مواضع عدّة، على جردة فيها الموجودات المميزة للمتوسط الطبيعي والعملي ولآثار العالم المتوسطي وفنونه ولمعجمه الاصطلاحي، على الأعم. هذا بينما تتحو المنظومات ذات المطمح "العلمي" – على اختلاف أنصبتها من بلوغه – إلى التصنيف وإبراز الفواصل. وفي هذه، خاصة، يتيسر للباحث أن يقرأ انتقال المتوسط المعنوي من طور إلى طور: من وظيفة إلى أخرى ومن درجة أو صيغة في الوجود إلى غيرها. مع ذلك، تزخر الفنون والآداب بصور ومواقف وأحكام تتراءى فيها تمثيلات العوالم المحدقة بهذا البحر بعضها لبعض. وكفى بتصور "الشرق" الذي بلغ أوج ازدهاره في "غرب" القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مثلا لذلك. وهذا تصور تآزر في رسم ملامحه أدباء ومستشرقون، وها تان فنتان قد تتحدان في الشخص الواحد أحيانا. ويذكر واحد من باحثينا بما امتزج في هذا التصور من أخيلة الفتنة والسحر بأخيلة الغربة وترسيخ الحد، وباتساع التصور نفسه – بما هو صفة للشرقيين – لخليط عجب من الصفات أشنا إليه أيضا (إسبانيا، ف 50). وهذه صفات لا تقابلها، في أيامها على الأقل، صورة للغربي عند الشرقيين تبلغ الدرجة نفسها من صلابة الخطوط وحدة الملامح. على أن صورة "الكافر" المتفوق

⁴ ينقل فابر هجاء ألبير كامو (الذي يقف غير بعيد عن متوسط الحواس) لروما (الإمبراطورية). وهو هجاء للترمت والحرب موجه إلى أنصار "العبقرية اللاتينية" في فرنسا الثلاثينات وفي إيطاليا الفاشية، خاصة. "نحن مع المتوسط ضد روما"، يكتب كامو. ويجاربه في هذا الموقف رفيقه غابرييل أوديزيو وآخرون (فرنسا، ف 60-68).

التي انطلقت منها مقارنة المسلمين للغربي كانت كافية، من بداياتها، لترسم بتقابلها وصورة الشرقي التي ذكرنا، معالم مواجهة بين "ذات" و"غير" لم نزل أسرى دوامتها إلى اليوم، ولتطلق جدل الاستقراب والاستغراب الذي نعلم مفاعيله (تونس، ف 24).

شمال وجنوب لا غير

هذان الشرق والغرب وجدا ، بفعل توسع الإسلام، على ما يرى بيرين – وقد أشرنا إلى ذلك – قبل أن يوجد الشمال والجنوب بقرون كثيرة. اليوم باتت الدنيا كلها شمالا وجنوبا لا غير (إسبانيا، ف 20)، وأخذ المتوسط، قبل غيره، بنصيبه من هذه القسمة. وكان من مفاعيل القسمة المشار إليها أن أطاحت الشرق من أصله ما لم يكن شرقا أوسط، مثلا، وهذا قد بات، بعد إلغاء الشرق الأدنى، يتعدى المتوسط بكثير. وللقسمة الجديدة مفاعيل عميقة في مياه المتوسط. فهذا البحر، اليوم، - وهو معدوم الضفة الغربية أصلا - لا تحتسب له ضفة شرقية. إذ هذه مضمومة، دون جدال إلى جنوبه. وهذا مصير مستغرب لضفة حضنت في ما مضى "سحر" الشرق الأنف الذكر و"الديار المقدسة" ولا تزال تتعهد النزاع العربي الإسرائيلي! بل إن التركية فريدة شيشيكلو تلاحظ، في التأليف الذي نتناول، أن بلادها المستقرة - بلا أدنى جدال - على ضفة المتوسط الشمالية بعيدة ما يكفي نحو الشرق ليسوغ احتسابها من الجنوب! (تركيا، ف 15).

ولا تقف مفاعيل القسمة الجديدة عند هذا الحد. فهي تسبغ عافية مستأنفة على التمييز بين شماليين: شمال جنوبي (هو المتوسطي) وشمال شمالي لا يقل مفعوله التسويغي لاجتراح متوسط ما يواجهه عن مفعول التقابل بين الشمال والجنوب في هذا المتوسط نفسه. هكذا يعود إلى دائرة الانتباه، على سبيل المثال، ما تسفر عنه المقارنة بين جنوب إيطاليا وشمالها من أسئلة ويظهر جنوح إلى احتساب هذا الجنوب على جنوب البحر لا على شماله (إيطاليا، ف 32-33). ويظهر أيضا ما بين كاتالونيا وإسبانيا القشتالية على أنه مشكل يتعذر الإغضاء عنه وإن يكن مختلف الصيغة عن سابقه (إسبانيا، ف 87-88). بل إن ما بين بروفانسا وسائر فرنسا يستوي أيضا مثارا لسؤال حافل بالمضمرات (فرنسا، ف 69-78). وهذا قبل أن نصل إلى شمال الشمال: أي إلى أوروبا الأخذة في التكوّن، وهي قارة يحتشد معظم جملتها العصبية في دول وأقاليم بعيدة عن واجهتها المتوسطية، أي عن جنوبها. ولا يفوت البعض من مؤلفينا أن هذا الجذب نحو الشمال ينتهي إلى قارة أخرى موفورة الثروة والقوة باشرت جرّ العالم نحوها وأزاحت المتوسط عن مركز العالم قبل ما يزيد عن خمسة قرون، أي حين نزل الأوروبيون على ساحلها سنة 1492! (إسبانيا، ف 43).

اختراع شمالي

يسبق هذه المواجهة - وهي تزيد المشهد المتوسطي تعقيدا على تعقيد - موقف منتشر عند مؤلفي هذه الكتيبات من شماليين وجنوبيين. وهو أن المتوسط -

بما هو مجال يفترض أنه أعطي مقومات الشراكة بين أطرافه – إنما هو اختراع شمالي. فنقول فريدة شيشيكلغو إن الأزرق والصعتر والزيتون والنبيد قريبة الشبه إلى دعاوة الـ "كلوب ميد" ولا تراها تكلف غالبا. وتستشهد قول باموك إن هذا كله لا يعدو أن يكون "بطاقة سفر في الدرجة الثانية" لكتاب أتراك يريدون الوصول إلى الغرب (تركيا، ف 7-8). وكان جورج دوبي قد سبق – على ما يذكر تييري فابر – إلى طعن ملصق الـ "كلوب ميد" هذا في الصميم، حين ألزمتنا بالتنبه – في ما يتعدى الراجح من الصور المنمطة – إلى أن المتوسط مطوق بالفقر والظلم من جميع نواحيه (فرنسا، ف 112-113). وهذه حال نجد أهل القوارب الفارين من ضفته الجنوبية إلى الشمالية، وقد استوا عند البعض من مؤلفينا رمزا لها (المغرب، ف 12-13 وإيطاليا، ف 42). ولا يمنع هذا التصويب دوبي من اعتبار المتوسط مجال "اعتزاز وسعادة لنا بكوننا بشرا" (فرنسا، ف 112). في كل حال، تبقى غلبة الأصل الاستعماري على المتوسطية موضع تركيز من الفرنسي فابر ومن الإسبانيين مونتالبان وكاليفا ومن الإيطالي كاسانو، فيبرزون المسحة اللاتينية التي طالما شابتها كثيرا أو قليلا، في كلام الساسة وفي كلام المؤلفين، على اختلاف الميادين. بل إن هؤلاء الشماليين من بين مؤلفينا أجود بالتفاصيل وأوفر عناية بالفوارق والتحويلات، في هذا المضمار، من زملائهم الجنوبيين، على التعميم، وأقل ميلا إلى الغفران أو غض الطرف من هؤلاء، سواء أكان هؤلاء من المغرب أم من تونس أم من مصر أم من لبنان⁵.

ويبدو الشماليون أحد انتباهها أيضا إلى أن المتوسطية الجديدة التي برزت في إبان العناية بالبناء الأوروبي عينها على شمال الشمال. فهي، لهذه الجهة، مسعى لموازنة الصقيع الألماني والضباب البريطاني بشمس المتوسط. وهي، في ما يتعدى هذا، خط دفاع تواجه به أوروبا كلها "الطريقة الأميركية في العيش"، وقد أخذت هذه تجتاحها من كل حذب وصوب. على أن تلك المواجهة بعيدة عن تذليل المشكل من العلاقات بين جنوب الشمال وشماله في أوروبا. فيستقيم لفرنكو كاسانو أن يبرز ما يراه "علاقة مرضية" طالت مدتها بين إيطاليا وجنوبها وبين إيطاليا ونفسها بالتالي. فمن الشمال الإيطالي ينظر إلى الجنوب على أنه موئل الفاشية والتخلف والمحسوبية والماфия ولا يستبقى له من حسنة إلا السياحة ومدة العطلة. وتشتق من هذه النظرة صورة يظهر المتوسط فيها خصما للحدثة وللبيرية والغرب. فيبدو متوسطيو إيطاليا وكأنهم ورثوا، على نحو ما، صورة المستعمرين (بفتح الميم) مع زوال الاستعمار (إيطاليا، ف 34-35).

ندالة الإحصاء

ومن إسبانيا إلى فرنسا وإلى ألمانيا وإيطاليا أيضا، يبقى ظل هؤلاء المستعمرين السابقين مخيما، مع ذلك. فهم اليوم مهاجرو الضواحي وهم – في عيون

⁵ يدخل اللبناني إلياس خوري إلى نصه من بامشهد عابناه في بيروت قبل أعوام هو مشهد الأوروبيين الذين قادوا إلى الشرق العربي حملة اعتذار عن الحملات الصليبية (لبنان، ع 47).

شمالية غير قليلة العدد – متعهدو الموبقات في المدن ومراتع الأصولية الإسلامية ومصدر خطر على حقوق مختلفة أتاحتها النمو، بمعناه الأعم، للمواطنين الأصليين وفرضها هؤلاء على رأس المال وعلى ساسته. وهم تكاثروا على نحو يبيح النظر – في اعتقاد البعض من مؤلفينا – إلى سياسة أوروبا الجديدة في المتوسط على أنها مسعى إلى ضبط هجرتهم وتنظيمها في نطاق البلاد الأوروبية نفسها وإلى الحد، ما أمكن، من تفاقم أسبابها في أقطار المنشأ (إسبانيا، ف 27-29 و122-123). فإذا نحن نظرنا من شمال المتوسط كله إلى جنوبه كله، صارفين النظر عمّن استقرّوا في أنحاء أوروبا من مهاجري الجنوب، تبدّى لنا حاضر الميزان السكاني ومستقبله في عبارتهما الإحصائية "الندلة" (والوصف لكاليخا). فعلمنا أن أوروبا تؤوي اليوم (أي في نهاية القرن العشرين) 51% من سكان الأقطار المتوسطية وتؤوي البلاد العربية 34% وتركيا 15%. وأما بعد ثلاثة عقود فستكون الحال غير الحال: 68% في البلاد العربية و22% في تركيا و10% في أوروبا! (إسبانيا، ف 132-133)

كيف تبدو هذه الحال نفسها إن نحن نظرنا من جنوب المتوسط إلى شماله؟ خلاصة الجواب أن ما هو تحسّب سكاني وحساب جغراسي وحاجة إلى المواد الخام والأسواق في الشمال يبدو من الجنوب تحسّبا سياسيا واقتصاديا حيال المستعمر السابق ولكنه يبدو أيضا إغواء لنموذج الحياة الشمالي وفرصه يحرض على الوصول إليها في مواضعها – بتوسل الهجرة – أكثر مما يؤمل باتخاذها قوة في أقطار الجنوب نفسها. ولنبدأ من تركيا، وهي – على ما رأينا – معدودة من الجنوب خلافا للطبيعة. يقدّم أدهم إدم إلى التأليف الذي نعرض مقالة غاية في الصرامة. وقد بلغ من صرامتها أن صاحبها نفسه ألحق بها تذييلا أعتذاريا! وأما موضوع اللوم فيها فهو موقف الأتراك التاريخي من المتوسطية... ومن هويات أخرى عديدة تنازعهم. لا شعور يعتدّ به ها هنا بالمتوسطية: لا في إدراك الهوية ولا في التراث، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل. ويعلم الله أن الهويات الأخرى كثيرة. الإسلام وآسيا الصغرى والشرق الأوسط والعلمانية والكمالية والهلينية والبلقان والصوفية والوثنية والحداثة والتقليد كل منها خاطب بيتغي إلحاق تركيا باسمه وبعض تركيا يستجيب لكل منها. على أننا، إن أجملنا هذا الحشد كله في انتسابين هما الإسلام وأوروبا، أدركنا ماهية الانحراف الذي ينتهي بالبلاد إلى إيثار الوهم والاحتباس في دائرته. فإن أيا من التوجهين لا يحمل على محمل الانتساب إلى "مسكونية" فيها ما فيها من الملل والنحل والأقوام ورؤى العالم. وإنما يؤول اعتماد الإسلام إلى رغبة في إلزام تركيا بالتأسلم لا غير وتؤول أوروبا إلى تغريب تركيا بلا قبول للجدال ولا هوادة (تركيا، ف 27-28).

وأما المتوسط فيكاد أن ينسى في حومة هذا الفصام. وإذا هو ذكر جرى تسخيرها لمطمح التغريب. ذاك ما يفعله، في منتصف القرن العشرين، مثلا، مؤلف (هو رشيد آتا بينن) ينوّه بوقوف الأتراك (بما فيهم دولة المماليك) مدة قرون ثمانية حرسا لأوروبا على جبهة المتوسط يردون الخطر المغولي! (تركيا، ف 30-35).

وهو ما يفعله، قبل ذلك ببضعة عقود، مؤلف آخر (هو الملقب بـ"صياد هاليكارناس") يمجّد الخليط الأناضولي، في مواجهة الطورانية، ويضمّ إليه كل ما يمكن ضمّه مبتدئاً بهوميروس وامتوسعا إلى أصول الحضارة الغربية برمتها (تركيا، ف 44-53). على أن هذا الشعاع المتوسطي، على علاقته، لم يكن ليسطع (في حالتيه هاتين وفي غيرهما) إلا ليخبو في عرض سماء مشغولة بالتناطح بين هويات أخرى ذكرناها. ويلاحظ الدم أن "استغراب" تركيا وجّهها، لا نحو المتوسط بل نحو الأطلسي، أي نحو بريطانيا وأميركا أولاً، وأن انضمامها إلى حلف شمال الأطلسي، في الخمسينات، حصل بسلاسة مغايرة جداً لما يلقاه من عسر، في هذا العهد الأخير، قبولها في أوروبا (تركيا، ف 58-59). ثم إن طموح تركيا الغربي كان مشفوعاً، في الحالين، بالمواجهة مع اليونان وبقدر من الازدراء لأقطار الجنوب. وخلاصة ما ينتهي إليه الدم أن المتوسطية بضاعة غربية المصدر، في تركيا وأنها "جائزة ترضية للأمم أتعبها التسكع عند أبواب أوروبا" (تركيا، ف 60). وكانت شريكة الدم في الكتيب التركي فريدة شيشيكوغلو قد سجلت تقديراً موافقاً لهذا، وقد ذكرناه. ما تعليل بقاء المتوسطية مهزولة إلى هذه الدرجة؟ توحى مطالعة الدم بوجود علتين. الأولى أن تزيق المتوسطية لا يبقى له مفعول يذكر عند بروز أسباب الفرقة التي يبطنها نسيج العلاقات بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب. والثانية – وهي، في ما نرى، وثيقة الاتصال بسابقتها – أن المتوسطية تواجه، في هذه الديار الجنوبية، هويات راسخة الجذور، شاسعة الظل ليس الإسلام أقلها، وبين أبرزها القوميتان التركية والعربية (تركيا، ف 58).

بحر الدماء

ذاك يردنا إلى متوسط جغراسي عرف ما عرف من النزاعات وما يزال، اليوم، في وجه رئيس من وجوهه، ميدانا لحروب واقعة أو محتملة ومحلا لحسابات الأمن والسطوة في دوائر الدول المحيطة به وفي دوائر دول أخرى بعيدة عنه، وبخاصة ما كان منها معدودا في فئة الدول العظمى. ذلك ما نعاين توقفا عنده في معظم الكتيبات القادمة من الشمال إلى التأليف الذي نحن بصده. وقد أشرنا إلى نصيب الكتيب الإسباني من هذا الهمّ ولا بغية لنا في الإحاطة بما يمت إليه. يكفيننا أن نذكر، من هذا الباب، أرقاما يوردها كاليخا تتعلق بما بعد الحرب الثانية: مائة ونزاعان ذات أهمية شهدتها منطقة المتوسط بين 1945 و1980، ومنها 64 من صنف المواجهات بين أمم و38 انقلابا. وبين 1977 و1996، نفع على 16 حربا وثورة ونزاعا مسلحا ضربت أقطار المتوسط (إسبانيا، ف 131-132). فمن يزعم، بعد هذا، أن شعوب المتوسط متروكة لشأنها ومن يأمل أنها ستترك له؟

هذا ولا نرانا نفع على شيء ذي بال يخالف تقدير الدم لمكانة المتوسطية في تركيا إن نحن غادرنا هذه الأخيرة إلى لبنان أو إلى مصر أو إلى تونس أو المغرب. فإن المصري محمد عفيفي يكاد لا يجد أحدا يؤنس وحشة المتوسط في بلاده ما بين الطهطاوي وطه حسين. وهو لا يقع على من يجاري طه حسين من بني جيله بعض

المجاراتة إلا سلامة موسى. فجمال حمدان، مثلا، (وهو من الجيل التالي، في كل حال) رجل تبعده الحيطة عن نسبة مصر إلى التراث الإغريقي- اللاتيني، ومن ثم إلى أوروبا. وهو، مع ذلك، لا ينكر البعد المتوسطي لمصر، وهذا عنده بعد حضاري أدنى أهمية من انتساب مصر إلى... آسيا (مصر، ع 18-19). ويذكر المغربي محمد برادة طه حسين أيضا، في المعرض نفسه، وكان قد درس عليه في القاهرة (المغرب، ف 8-10). غير أننا نشعر بالإغواء الغربي، ولو محبطا، في الكلام التونسي والمغربي. فعند أمنة بلحاج يحي، مثلا، تبرز حسرة على عهد العبور الحر إلى الشمال لاكتشاف المعرفة والحدثة والتقدم والحرية. ويقارن هذا بحاضر أخذت أبواب البحر تغلق فيه دون شباب الجنوب وخالطت الشبهات مياه المتوسط (تونس، ف 9-13). ويوازي برادة ما بين رفضه سياسات الدول الاستعمارية في متوسط الأمس وتلمذته على مبدعي الشمال (المغرب، ف 10-11). وأما البقية فهي هي: متوسط هامشي تنفخ فيه الورشة الأوربية شيئا من الحيوية فيعود محمولا على سياسة الدولة الجديدة، في مصر مثلا، فقيرا إلى تراث حي وإلى نصيب من هوية... (مصر، ع 19-20).

مرّ بنا أن المتوسط الإغريقي لا يظهر بكليته للأغارقة – في ما ترى رانيا بوليكوندريوتي – إلا حين يبتعدون عن بحر إيجه أو بتوسط غير المتوسطيين. ويذهب مذهبا قريبا من هذا عدّة من مؤلفي الكتيبات التي بين أيدينا. والحال أن صفحة المتوسط تكاد لا تبدو منبسطة حتى أطرافها، في هذا التأليف (ومن غير عنت أو مشقّة في التجريد)، إلا في الكتيّب الألماني. أي في الكتيّب الوحيد المكرس هنا لـ"تصورات" المتوسط في ثقافة غير متوسطة.

شمال الشمال

تبدأ مقالة الباحث غريغور ميرنغ⁶ بنص مذهل لأخ دومينيكي من مدينة أولم الألمانية كان يدعى فيلكس فابري، وقد كتبه سنة 1483. وفيه يعلمنا أن المتوسط ذو فضل على الإنسانية تجاوره شعوب تكاد تعصى على الحصر، فيبيسر التعارف بينها ويؤسس للصدّاقة في ما وراء اختلاف الأعراق والمواطن واللغات والأعراف والتقاليد وسائر تعابير الاجتماع البشري ومقوماته. "فمن ذا الذي كان يصدّق أن الأخ فيلكس فابري يسعه أن يصبح رفيقا للكفار وصديقا لمنازل غير المعمّدين وأنه قد يصقّق استحسانا لتركي أو يجالس بلا تكليف أحد الشراقة وأنه قد يصير صديقا لتتري ويلزم طاعة العرب والمصريين وأنه قد يؤدي فروض التقدير لمحمد ويخشى جانب البرابرة⁷؟ ذاك كله من فضل البحر الذي يصل ما بين هؤلاء." (ألمانيا، ف 41-42). وفي زمن أقرب إلينا أي في القرن الثامن عشر، تكوّن مثال متوسطي أصبح – على قول ميرنغ – أساسا لكل تاريخ ثقافي عند الألمان وغيرهم (ألمانيا، ف

⁶ النص "الأدبي" في الكتيّب الألماني رسالة كتبها فولغانغ ستورش إلى أدونيس (صاحبنا لا الإله الفينيقي).

⁷ "البرابرة" في العرف الإغريقي هم غير الأغارقة كائنين من كانوا. وهم، في العرف الروماني (الذي يحيل إليه فابري، على الأرجح) جملة الشعوب الجرمانية التي ينتمي إليها فابري نفسه.

44). فإذا بهومبولدت يكتب، في غرّة القرن التالي، أن الأغرقة القدماء لم يكونوا مجرد شعب "وإنما هم لنا ما كانه آلهتهم لهم" (ألمانيا، ف 47). وفي هذه الحقبة يولد في العقول وطن روعي يطلق عليه اسم "أركاديا" يستعير اسم المنطقة الإغريقية الموسومة، من زمن قديم، بهذا الاسم وترشد إلى معالم طريقه "رحلة" غوته المشهورة إلى إيطاليا (ألمانيا، ف 47-48). وقد ذكرنا أن هيغل أفتى بانتماء الضفة الإفريقية من المتوسط، طبيعة وبشرا إلى أوروبا. وهو قد قال القول نفسه في آسيا "الأمامية". وهذا قول ما كان له إلا أن يسرّ حزب الاستعمار في العهد التالي، ولكن هيغل رمى منه إلى إبراز وحدة المتوسط. وقد سبق علماء المحيطات والجغرافيون من الألمان رصفاءهم من المؤرخين إلى هذا الإبراز (ألمانيا، ف 58-59). ومع أن اختلاف المتوسطيين عن أهل الشمال الأوروبي لم يفت فطنة الألمان، بل وصفه علماءهم ودخلوا في تفاصيله، فإن هذا الإدراك لم يورث نفورا ملحوظا يقابل حذر الأوروبيين الجنوبيين من سطوة الشماليين وفي مقدّمهم الألمان. وإنما غلب الفضول والإقبال على السياحة. فكتب فيلبسون، سنة 1922، أن الألمان "يتعهدون من نعومة أظفارهم رغبة عميقة في مشاهدة الجنوب"، وذكر أن الشعراء والفنانين والكتاب والعلماء الألمان يتولون إنماء هذه الرغبة ويعوضون من لم يتيسر له إشباعها (ألمانيا، ف 58).

لم يمنع هذا الانعطاف نحو المتوسط ألمانا من أصحاب نظرية "الدوائر الحضارية" (kulturkreis) بخاصة، من الالتفات إلى الحدود الفاصلة بين الجماعات المنتشرة حول هذا البحر. فأبرزوا اختلاف الإسلام واستواءه حاجزا بين شطري المتوسط. وهذا مع ميل أظهوره إلى التهوين من شأنه بسبب ضعفه عن مواجهة دول أوروبية كان نجمها آخذا في الصعود. ذاك ضعف وجده فيشر في مطلع القرن الماضي ديمغرافيا واقتصاديا وحضاريا في آن. وعزاه فيليبسون، بُعيد الحرب الأولى، إلى إخفاق "الخلفاء" والعثمانيين بعدهم في السيطرة على "المتوسط نفسه" (ألمانيا، ف 66-68)⁸. وحين بدت إيطاليا الفاشية حليفا مفضّلا لألمانيا الهتلرية في الحرب العالمية الثانية، منح أمثال هلتراندت إيطاليا امتيازاً واضحاً في المتوسط وجدوا في تراثها اللاتيني مسوّغاً له واستبعدوا أن ينشأ تزاوح بين اللاتين المتوسطيين والجرمان ذوي المطامح القاريّة (ألمانيا، ف 80-81). ذاك كلام أخلّى مكانه، غداة الهزيمة في الحرب، لآخر بدا ملحاحاً في بعث مصطلح إنسانوي كان هو الموافق للرغبة في الخلاص من تركة النازية. وقد صحب هذا البعث إحياء للتعلق المعنوي بالمتوسط (ألمانيا، ف 82). وما لبث البحر أن أخذ يتجسم في الوجود المتنتامي لأهل المتوسط من المعدودين جنوبيين على الأرض الألمانية. وقد انتظر الألمان – على قول ميرنغ – "عمّالاً" من الجنوب "فجاءهم بشر". جاؤوا ومعهم مطبخهم وموسيقاهم وأديانهم وسائر ما تقوم به طريقتهم في الحياة. وقد نشأت بإزاء هذا "التعرض" الألماني للمتوسط مروحة مواقف في البلاد هي نفسها التي نفع عليها

⁸ كان الفرنسي لويس فويو قد كتب في مذكرات رحلة قام بها سنة 1841 إن المتوسط عبره الإغريق وإيطاليا والإنجيل "وفيه غرق القرآن" (فرنسا، ف 53).

في مجتمعات الشمال الأخرى، فيوجد فيها "التعبد" للغريب ويوجد فيها مقتته. فوجبت العودة – والكلام لميرنغ أيضا – إلى المران الذي كان فليكس فابري قد فرضه على نفسه قبل خمسمائة عام (ألمانيا، ف 84-85).

*

هوية للمتعبين

هذا ما قرأنا أو هو، من أصل ما قرأنا، ما وجدنا داعيا إلى التثويه به وإدراجه في مساق الجواب عن أسئلة وجدنا لها قدرا معتبرا من الواجهة. فمن أين خرج هؤلاء المؤلفون الذين التقت كثرة كاثرة منهم على القول إن بلادهم أو مدنهم أدارت ظهرها إجمالا لهذا الأزرق المنبسط أمامها أو أن أهلها كادوا لا يبصرون منه إلا بقعا يصلح بها معاشهم أو شطورا تتركز فيها مطامح بلادهم ولم يتخذوه موئلا لهوياتهم أو مرآة لصور جماعاتهم؟ يسعنا الجزم بأن المؤلفين المذكورين ينتمون، بجملتهم، إلى جيل أو صف من النخب تعب من سؤال الهوية أصلا ووجد ضالته في بحر يواطئه على استغناء شبه مضمون عن هذا السؤال أو، في الأقل، على تكثير الهوية وإظهار أخلاطها إلى حد تكاد معه تتعذر تسميتها. فإن إدراك الكثرة والخليط وتنازع الأرجاء في المتوسط يبدو قابلا، من غير لبس، للارتداد على هويات أضيق (قومية أو وطنية أو دينية، إلخ). يتخن فيها ويمعن في إبراز صدوعها للعيان. عليه لا يصلح هذا النفر من الكتاب ناظرين مخولين بالسنة الجماعات التي خرجوا منها أو مترجمين محلّفين لصيغ الهويات المضطربة في صفوفها والمواجهة بعضها لبعض. فهؤلاء الكتاب لا يستيقون من سؤال الهوية المتوسطي (وهو الذي يمنح معنى لمصطلح "المتوسطية") إلا وجها واحدا. ذلك هو السؤال عما إذا كانت الكثرة، بحد ذاتها، أو الاختلاف والتنوع، بما هما اختلاف وتنوع، تصلح وحدها هوية جامعة لأهلها المنتشرين على ضفاف هذا البحر؟ فإنما النزوع الغالب ها هنا نزوع إلى إخراج الشبه من بين المقومات اللازمة لنوع بعينه من الوحدة أو، في الأقل، إلى تضييق مقام الشبه تضييقا بيّنا ما بين أسباب الوحدة والدواعي إليها.

يعود تييري فابر في ختام مقاله إلى "متوسط الضفتين" (فرنسا، ف 141-152)، وهذه مقالة حد أدنى في قبول الهجنة والاعتبار بالفوارق كان قد سبقه إليها مستعربون بارزون من الفرنسيين، ولعل أشهرهم جاك بيرك. ويسأل أدهم إدم عما إذا كان المتوسط شيئا غير زرقة الماء والبيوت البيضاء والصعتر والزيتون وإكليل الجبل (تركيا، ف 58). ويمزج إدوار الخراط أشياء كثيرة منها الفرعوني ومنها القبطي ومنها الإسلامي ومنها اليوناني، إلخ، لينتهي إلى الطحالب البحرية كناية عما كتب (مصر، ع 45-48). ويعلن ثيودور بولس عزوفه عن إضافة المتوسطية هوية

أخرى إلى هويات كثيرة ينوء بحملها (اليونان، ف 26-27). ويلتقي كثيرون على أن متوسط برشلونة الذي اجترحته أوروبا الجديدة (وينفرد كاليخا بالتأريخ لمحطاته) إنما هو شأن دول يقبله من يقبله ولكن التحسب مما وراءه يبقى مفروضا. ولا ينكر أحد من المؤلفين أيضا (شماليين كانوا أم جنوبيين) أن تاريخا فيه ما فيه من المطامع والقهر ومن المدن المسوأة بالأرض والدم المتدفق⁹ والأساطيل الغارقة والأساطير التي تمسك بدقة الأساطيل ما كان له إلا أن يعزز ضرورة التحسب المذكور. وهم يحصون ثغرتين كبيرتين تتصلان في هذا المشروع المتوسطي المعقد التصاميم وهما التفاوت في الثروة والمنعة بين الضفتين والأصوليات المستعرة على كليهما. وهم يحصون أيضا صورا مختلفة للبناء. وقد يصح قول لمتافيجيفيك يذكره كاليخا (إسبانيا، ف 125) مؤداه أن أوفق الصور إنما هي صورة "العمل" بمعنى الإنشاء، لا صورة "الكيونة" الحاصلة، وهي صورة الاستكشاف لا صورة الاسترجاع وهي، قبل ذلك – وفق عبارة كاسانو – صورة المشكال يُستعرض عبره تعقيدُ العالم وهجنته لا صورة الهوية المصمتة (إيطاليا، ف 38). تلك صورة قد تثمر، إذا قرنت بإدراك الثغرتين الأنفتي الذكر، منطقا يراعي المصلحة الجامعة ولكن بعد أن يوسع أفقها إلى مدى العالم المتوسطي كله ويدقق في مفهومها أبلغ التدقيق. فهذان توسيع وتدقيق لا يستغني عنهما من كانوا مصممين على ألا يكون متوسط الغد أيضا جرحا مفتوحا بين ضفتين.

آب-أيلول 2004

⁹ كتب الفرنسي رينيه بينون، في أوائل القرن العشرين، أن المتوسط وسواحله استوت، عبر التاريخ، واحدا من أكثر المسارح تشبعا بدماء البشر (فرنسا، ف 120). ونقل ميرنغ عن هلتبراندت وصفه المتوسط بـ"البحر الدامي" (ألمانيا، ف 80).